# منهج دراسة بلاغة السورة

إعـداد

دكتور/ ياسر بن حامد المطيري

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز -المملكة العربية السعودية

١٤٤٦ هـ- ٢٠٢٥م

# منهج دراسة بلاغة السورة

**ياسر بن حامد المطيري**
**قسم البلاغة والنقد، جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز، المملكة العربية السعودية.**
**البريد الإلكتروني :**
yh1131@hotmail.com

**الملخص:**

عند دراسة بلاغة القرآن لا بد من منهجٍ وافٍ يسلكه الدارس ليصل إلىٰ مراده أو يقارب، ويقوم علىٰ استيفاء النظر حسب ما تقرر عند البلاغيين مع مراعاة خصوصية الوحي وخطر القول فيه بلا علم ومراعاة أقوال السلف وإجماعهم وغير ذلك، لتُبنىٰ الدراسة علىٰ أساسٍ متينٍ تُستوفىٰ فيه جوانب النظر البلاغي، وليتحقق التعاضد والتكامل بين العلوم، لا التخالف والتنازع. ولأجل ذلك كان هذا البحث الذي بعنوان: (منهج دراسة بلاغة السورة)، حاولت فيه أن أضع علامات وصُوىٰ يترسَّمها دارس بلاغة القرآن ليبلغَ مبتغاه بتوفيق الله وعونه، ويكون له بعد ذلك فضل تطبيقه ومعالجته. وقد قسمته إلىٰ مبحثين: الأول: في (أسس المنهج)، وهو يتناول الأسس والقواعد والضوابط التي ينطلق منها المنهج في دراسة هذا المجال من النظم القرآني، وقد اشتمل علىٰ ثمانية أسس وهي: خصوصية القرآن، وترتيب آياته، ومعرفة معانيه بالمنهج الصحيح، ومراعاة السياق الداخلي والخارجي، وطلب مقصد السورة، ثم ختمت الأسس بأصلين مهمين: أحدهما في بيان حدود علم البلاغة، والآخر في بيان أنَّ علم البلاغة الصناعي راسمٌ لأصول البلاغة وكبرىٰ مسائلها وليس محيطًا بـها. وأما المبحث الآخر فهو في (الإجراءات وطرائق التحليل)، وهو يتناول الأدوات والطرق الإجرائية التي يتبعها المنهج في الدراسة، وقد انتظم خمسةً منها وهي: دراسة السورة

وفق نظمها، وتحديد موضوعها وتقسيمه حسب المعاني، ثم تحليل المفردات والنظر في دلالات التراكيب، مع ملاحظة ما تتميز به السورة من ظواهر متكررة أو فرائد، وفي سبيل إبراز البلاغة القرآنية تُطرح البدائل التي يحتملها السياق لإظهار فضل التعبير القرآني. وقد جاء التنبيه في خاتمة البحث علىٰ أن المقصود بهذا المنهج الأصول التي لا ينبغي الإخلال بها عند دراسة بلاغة السورة، وأما الإضافة إليها وطريقة تناولها وترتيب مباحثها فذلك أمرٌ متاحٌ لكل باحثٍ حسب ما يراه.

**الكلمات المفتاحية:**

منهج- دراسة - سورة- بلاغة.

# Methodology for Studying the Rhetoric of the Surah

Yasser bin Hamed Al-Mutairi
Department of Arabic Language , Rhetoric and Criticism , College of Education , Prince Sattam bin Abdulaziz University, Saudi Arabia.
**Email:** yh1131@hotmail.com

**Abstract:**

Studying the rhetoric of the Qur'an, a comprehensive approach is necessary for the researcher to reach or approximate his goal. This is based on comprehensive considerations according to rhetoricians, while considering the specificity of revelation and the danger of speaking about it without knowledge. It also considers the sayings and consensus of the early scholars, among other things. This allows the study to be built on a solid foundation that fully addresses aspects of rhetorical considerations, and achieves mutual support and integration between the disciplines, rather than conflict and contradiction. For this reason, this research, entitled "The Methodology of Studying the Rhetoric of the Surah," I attempt to establish benchmarks and guidelines for the student of Qur'anic rhetoric to follow to achieve their goal, with Allah's help and support. This approach will then have the merit of applying and addressing the subject. I divided it into two sections: The first: on (the foundations of the method), which deals with the foundations, rules and controls from which the method is based in studying this field of Qur’anic structures. It included eight foundations, which are: the specificity of the Qur’an, the arrangement of its verses, knowing its meanings with the correct method, considering the internal and external context, and seeking the purpose of the surah. Then I concluded the foundations with two important principles: one in explaining the limits of the science of rhetoric, and the other in explaining that the artificial science of rhetoric is a drawing of the foundations of rhetoric and its major issues, but it does not cover them. The

other section, "Procedures and Methods of Analysis," addresses the procedural tools and methods used in the study. It is organized into five sections: studying the surah according to its structure, defining its theme and dividing it according to meanings, analyzing the vocabulary and examining the connotations of the structures, while noting the surah's distinctive features, such as recurring phenomena or unique features. To highlight the Quranic eloquence, alternatives suggested by the context are presented to demonstrate the excellence of Quranic expression.

**Keywords**: Methodology - Study - Surah - Rhetoric.

## مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، أما بعد:

فإن كتاب الله هو الآية الباقية التي أوتيها نبيُّنا ﷺ؛ الكتاب الذي تحدىٰ الله العرب أن يأتوا بمثله، فعلموا أنه لا سبيل لهم إلىٰ ذلك، فأما الصادق فسارع إلىٰ الإيمان، وأما المعاند فجحد به واستيقنته نفسُه ظلمًا وعلوا، وأيقن أنه لا يمكن رده بالحجة والبرهان، فسلك طريق الصد عن سبيل الله بالكذب والبهتان، ولما رأىٰ أن الحق في انتشار وأَتْبَاعه في ازدياد، سَلَّ سيفه ليطفئ نور الله، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [سورة الصف:٨].

ولما كثرت الفتوحات واختلط العرب بالأعاجم دبَّ اللحن وضعفت السليقة العربية عند أهلها، فنهد العلماء إلىٰ استقراء فصيح كلام العرب واستنبطوا منه قواعد العربية وصنفوا علومها، وغايتُها فهمُ الوحي الذي نزل باللسان العربي، وصيانتُه عن الفهم الأعجمي الذي يتأوله علىٰ غير تأويله، ودفعُ المطاعن عنه.

ومن علوم العربية التي غايتها إدراك وجه إعجاز القرآن: (علمُ البلاغة)، فبه يتميَّزُ بليغ الكلام، ووجه كونه بليغًا، ويُفاضل بين البليغ والأبلغ، ولا يوصل إلىٰ ذلك إلا بمراعاة مقتضَىٰ الحال؛ حال المتكلم والسامع ومقام الخطاب وقرائن الأحوال، وذلك يقتضي خصوصياتٍ في الكلام من اختيار اللفظ وصيغته ودلالته، ثم الجملة والجمل وما يعرض لها، إلىٰ الصور البيانية التي بعضها أوضح دلالةً من بعض، فالمحسِّنات التي تزيد الكلام حسنًا وقبولًا، وهذا وغيره هو ما يُبحث في علم البلاغة،

لتكون لصاحبه ملكةٌ تُمِدُّه ببليغ القول إن تكلم، وبتمييزه إن استمع، ويحصل له بها وبارتياضه بفصيح الكلام ذوقٌ عربيٌّ سليم.

ومع هذه الغاية الشريفة لهذا العلم إلا أنه عند دراسة بلاغة القرآن لا بد من منهجٍ وافٍ يسلكه الدارس ليصل إلىٰ مراده أو يقارب، ويقوم علىٰ استيفاء النظر حسب ما تقرر عند البلاغيين مع مراعاة خصوصية الوحي وخطر القول فيه بلا علم ومراعاة أقوال السلف وإجماعهم وغير ذلك، لتُبنىٰ الدراسة علىٰ أساسٍ متينٍ تُستوفىٰ فيه جوانب النظر البلاغي، وليتحقق التعاضد والتكامل بين العلوم، لا التخالف والتنازع.

ولأجل ذلك كان هذا البحث الذي بعنوان: (منهج دراسة بلاغة السورة)، حاولت فيه أن أضع علامات وصُوىٰ يترسَّمها دارس بلاغة القرآن ليبلغَ مبتغاه بتوفيق الله وعونه، ويكون له بعد ذلك فضل تطبيقه ومعالجته، و"حمل النِّصَال غير مباشرة القتال" كما يقول ابن الأثير.

**أهمية البحث:**

**ترجع أهميته إلى أمورٍ منها:**

١- تعلقه بكتاب الله تعالىٰ، الذي يحرم القول فيه بلا علم، والذي له من الخصوصية ما يفارق فيه سائر الكلام، وما كلُّ أصلٍ يمكن تطبيقه علىٰ الشعر يمكن تطبيقه علىٰ كتاب الله، فيجب أن توضع لدراسته المناهج التي تعين البلاغي علىٰ توخِّي مبتغاه بتجويدٍ وإحكامٍ.

٢- إن القرآن الكريم هو موردُ العلوم الإسلامية، وفي مقدَّمها علم التفسير الذي يُعنىٰ ببيان معاني كلام الله، ويضع الأصول التي يجب مراعاتها لمعرفة المعنىٰ الصحيح، وحينئذٍ كان لزامًا علىٰ البلاغي وغيره أن يعرف حدود علمه ومتىٰ يمكن أن يقول ومتىٰ يجب أن يقف:

ووضعُ النَّدَىٰ في موضع السيف بـالعُلا مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع النَّدَىٰ

٣- المطلع علىٰ كثير من الدراسات في حقل (البلاغة القرآنية) يلحظ القصورالذي يلحقها بسبب قصور مناهجها، فكان من المهم رسم منهجٍ يُستعان به ويُضاف عليه.

**الدراسات السابقة:**

**وقفت على دراستين لهما تعلق بـهذا الموضوع:**

**الأولى: المعنى القرآني (معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة، رؤية منهجية ومقاربة تأويلية)** للدكتور محمود توفيق محمد سعد، صادر عن مكتبة وهبة، في ٥٣٦ صفحة، وقد قسمه إلىٰ قسمين: الأول: المصطلح وما إليه تحدث فيه المقصد الرباني في الإعجاز والتدبر ومفهوم المعنىٰ القرآني وأنواعه وخصائصه وغير ذلك. الثاني: معالم علىٰ الطريق وتحدث فيه عن المعنىٰ المركزي في السورة وأثره في تناسب السورة القرآنية. وأهم ما تقاطع فيه مع بحثي وأبرزه هو حديثه عن مقصد السورة وكيفية الوصول إليه، وهو مطلبان فقط في بحثي من خمسة عشر مطلبًا، ثم إن هدف الدراستين مختلف، فهدفه فهم المعنىٰ القرآني وتدبره، وهدف دراستي وضع منهج لدراسة بلاغة السورة، وحتىٰ فيما التقىٰ فيه البحثان فطريقة التناول مختلفة، ويمكن ملاحظة ذلك بالاطلاع علىٰ البحثين.

**الثانية: مدخل إلى البحث البلاغي،** للدكتور إبراهيم الهدهد، صدر عن مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م، في ١٦٨ صفحة، وهو في معنىٰ البحث البلاغي ومصادره، ويلتقي مع دراستي في فصله الثاني وهو مناهج البحث البلاغي، حيث ذكر فكرة الاحتمالات، وهو معنىٰ ما ذكرته في المطلب الخامس من الإجراءات، وقد أفدت منه في هذا المطلب وأحلت عليه، كما ذكر أيضًا مقاصد السور وما يتعلق بها مما طرقته في المطلب الثاني، والمقصود أن دراستي في منهج بلاغة السورة علىٰ وجه

الخصوص لا في المناهج البلاغية بعامة، ولذلك فالبحثان مختلفان في غايتهما وفي غالب مضمونهما.

**خطة البحث:**

**تشتمل خطة البحث على مقدمةٍ وتمهيدٍ ومبحثين وخاتمة وفهرس:**

مقدمة تشتمل علىٰ أهمية الموضوع وأهميته والدراسات السابقة وخطة البحث.

**التمهيد وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: المقصود بالسورة وأصل اشتقاقها، وأسماء السور وتوقيفية هي أم اجتهادية.**

**المطلب الثاني: الفرق بين دراسة السورة ودراسة الآية.**

**المبحث الأول: أسس المنهج [يتناول الأسس والقواعد والضوابط التي ينطلق منها المنهج في دراسة هذا المجال من النظم القرآني] وفيه سبعة مطالب:**

**المطلب الأول: خصوصية القرآن الكريم.**

**المطلب الثاني: ترتيب الآيات.**

**المطلب الثالث: معرفة معاني الآيات عند السلف وعدم مخالفة الإجماع.**

**المطلب الرابع: السياق.**

**المطلب الخامس: أسبابُ النزول وملابساتُه ومعرفة المكي من المدني.**

**المطلب السادس: مقصد السورة.**

**المطلب السابع: حدودُ علمِ البلاغة في بيان المعاني وترجيحِ بعضِها على بعض.**

**المطلب الثامن: علم البلاغة راسمٌ لأصول البلاغة وكبرى مسائلها وليس محيطًا بـــها.**

**المبحث الثاني: الإجراءات، وطرائق التحليل [يتناول الأدوات والطرق الإجرائية التي يتبعها المنهج في دراسة هذا المجال من النظم القرآني] وفيه خمسة مطالب:**

المطلب الأول: **دراسة السورة وفق نظمها وترتيبها**، وعدم تفريق أجزائها وفق فنون البلاغة.

المطلب الثاني: **تحديد مقصد السورة**، ثم تقسيمها إلىٰ مقاطع حسب موضوعاتها، وبيان مناسباتها، وأغراض انتقالاتها، ودراسة الفاتحة والخاتمة مبرزًا تلاؤمهما مع سائر مقاطع السورة وخدمتهما لغرضها الكلي.

المطلب الثالث: **تحليل المفردات والنظر في دلالات التراكيب وخصائصها، وحروف المعاني.**

المطلب الرابع: **ملاحظة ما تتميز به السورة** كالظواهر المتكررة فيها كتكرار مفردةٍ أو تركيبٍ أو آيةٍ، وكذلك العكس وهو ملاحظة الفرائد التي لم ترد في غيرها سواءٌ كانت لفظةً أو تركيبًا أو أسلوبًا.

المطلب الخامس: **توجيه الأسئلة للنص، ومنه سؤال البديل.**

**الخاتمة.**

**فهرس المراجع.**

وأسأل الله الإعانة والتوفيق

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

# التمهيد

## المطلب الأول: المقصود بالسورة وأصل اشتقاقها، وأسماء السور وتوقيفية هي أم اجتهادية:

**السورة:** قطعة من القرآن لها أولٌ وآخر ولها اسمٌ يميِّزها عن غيرها(١).

**واختلف في اشتقاقها:** فقيل: من السُّور أي: سور المدينة؛ ووجه مشابهته له: رِفْعَتُه؛ قال ابن جرير: "السورة بغير همز: المنزلة من منازل الارتفاع، ومن ذلك سور المدينة، سمي بذلك الحائطُ الذي يحويها لارتفاعه علىٰ ما يحويه.. ومنه قول نابغة بني ذبيان:

ألَـــم تَـــرَ أنَّ الله أعطـــاك سُـــورةً ... تـــرىٰ كـــل مَلْـــكٍ دونهـــا يتذبـــذبُ

يعني بذلك أن الله أعطاه منزلة من منازل الشرف، التي قصرت عنها منازلالملوك"(٢).

**وقيل:** السورة من سور المدينة لإحاطتها بآياتها كإحاطة سور المدينة ببنيانه. وقيل غير ذلك(٣).

**وحد السور توقيفيٌّ**، وعلامتها -باستثناء سورة التوبة- افتتاحها بالبسملة، كما في سنن أبي داود في عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "كان النبي ﷺ لا يَعلمُ فَصْلَ السورة حتىٰ تنزل عليه: (بسم الله عليه الرحمن الرحيم)"(٤).

وأسماء السور توقيفيَّةٌ أيضًا عند جمهور العلماء، ولا يشكل علىٰ ذلك أن يكون لها أسماءً أخرىٰ اجتهادية(٥).

---

(١) ينظر: البرهان للزركشي (١/ ٢٦٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٠٢).

(٣) ينظر: البرهان للزركشي (١/ ٢٦٤).

(٤) سنن أبي داود (٧٨٨).

(٥) للتوسع ينظر: أسماء سور القرآن (٧٢- ٧٨).

## المطلب الثاني: الفرق بين دراسة السورة ودراسة الآية:

إن الله تعالىٰ تحدىٰ العرب أن يأتوا بسورة ولـم يأت التحدي بآية، وإذا علم أن الإعجاز إنما يكون بسورةٍ لا ببعضها، فإنه يلزم دراس السورة مِن تَبَيُّنِه وتبيينِه أكثر مما يلزم من درس جزءًا منها، إذ البلاغة كما تكون للآية في نفسها بمفرداتـها وتراكيبها، فإنـها تكون أيضًا بمجاورتـها لأخواتـها وبموقعها في نظام السورة.

وقد نبه الباقلاني وابن أبي الإصبع وغيرهما علىٰ أن إعجاز القرآن لا يتم بالنظر في آيةٍ منه، لأن القصيدة أيضًا قد يوجد فيها البيت الفذ والمعنىٰ المعجب، ولكنها كما علت فإنـها تسفل، أما كلام الله تعالىٰ فله العلو المطلق، فهو علىٰ طوله وكثرة سوره متناسبٌ في البلاغة والفصاحة، وفي ذلك يقول الباقلاني: "عجيبُ نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، علىٰ ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف علىٰ حسب اختلاف هذه الأمور".

ولذلك عرض الباقلاني لشاعرين من كبار الشعراء في عصرهما وهما امرؤ القيس والبحتري، واختار لكلٍّ منهما قصيدةً من عيون شعره، ثم بيَّن كيف تفاوتت قوةً وضعفًا، وفي ذلك يقول: "إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد إلىٰ قصيدة متفق علىٰ كبر محلها، وصحة نظمها، ووجوه بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم علىٰ إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك علىٰ مواضع خللها، وعلىٰ تفاوت نظمها، وعلىٰ اختلاف فصولها، وعلىٰ كثرة فضولها، وعلىٰ شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي، يقرن بلفظ ملوكي".

وقال ابن أبي الإصبع: "ولما رأيت المؤلفين في هذا الشأن لم يذهبوا مذهبًا يقوم بمثله علىٰ مخالفهم البرهان، لكونهم بوبوا تواليفهم أبوابًا مترجمةً بنعوت محاسن الكلام الذي سماه المتأخرون بالبديع، وانتزعوا آيات تدخل محاسنها في تلك الأبواب، ولم يعدلوا إلىٰ سورة بكمالها فيُظهروا إعجازها بالنسبة إلىٰ قصيدة فاضلة، أو خطبة هائلة، لتقطع حجة الزنديق، وتبطل دعوىٰ كل من خرج عن الطريق، فإنا لو قال لنا بعض الزنادقة: إنه ما مِن قصيدة أو خطبة للعرب إلا ويندر فيها البيت الطائل، والمعنىٰ الهائل، فأي مزية لهذا الكلام العظيم علىٰ غيره من الكلام؟ ولو سلكوا غير طريقتهم في إعجاز القرآن لما ورد عليهم هذا الدَّخَل، ولما توجه عليهم بسببه الملام.." (١).

بل هذا يجري حتىٰ في فهم النص أو الحكم عليه، فإنه إذا اقتُطِع مِن سياقه قد يقع الغلط فيه، وقد أشار القاضي الجرجاني إلىٰ أنَّ البيتَ تختلفُ منزلتُه في البلاغة إذا نُظِر إليه وحدَه(٢)، ومن شواهد ذلك قول جرير(٣):

كانت حَنِيفَةُ أثلاثًا فثُلْثُهُمُ ... من العَبِيدِ وثُلْثٌ مِن مَوَالِيهَا

فقد عابه قدامة والمرزباني بفساد التقسيم(٤)، حيث سَكَت عن الثلث الثالث، والحقُّ أنَّ جريرًا ذَكَره في البيت الذي يليه، وقد فات ذلك مَن انتقده لنظره في البيت وحده دون ما بعده.

والمقصودُ هنا التنبيهُ إلىٰ أن دراسة سورةٍ بتمامها ليس كدراسة جزءٍ منها، فهو يتطلب النظر في مجموعها بعد النظر في آياتها، وتفصيل ذلك سيأتي في المنهج إن شاء الله.

---

(١) الخواطر السوانح (٧٢).

(٢) ينظر: الوساطة (٢٢).

(٣) في ديوانه (٢/ ٥٤٥).

(٤) نقد الشعر لقدامة (٢٠١)، الموشح للمرزباني (١٦٧).

## المبحث الأول: أسس المنهج

يتناول الأسس والقواعد والضوابط التي ينطلق منها المنهج في دراسة هذا المجال من النظم القرآني، وفيه سبعة مطالب:

### المطلب الأول: خصوصية القرآن الكريم:

القرآن كلام الله تعالىٰ، افتتحه سبحانه بنفي الريب عنه: (الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه)، وأعزَّه فلا يجد الباطل سبيلًا إليه بوجهٍ من الوجوه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [سورة فصلت: ٤١-٤٢].

وقد أوكل الله الكتبَ السابقةَ إلىٰ العلماء فضيَّعوها، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [سورة المائدة:٤٤].إلىٰ قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [سورة المائدة:٤٤]،. فحرَّفوا وبَدَّلوا وكتموا ولَبَسوا الحق بالباطل واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا كما أخبر الله عنهم في مواضع من كتابه، "أما القرآن الكريم فلم يوكِل تعالىٰ حفظَه إلىٰ أحد، بل تولَّىٰ حفظَه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدَّسة كما أوضحه بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر:٩]."[1].

نزل به أمينُ السماء علىٰ أمين الأرض بلسان عربي مبين كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥]،. وبهذه الأمور

(١) ينظر: أضواء البيان (٢/ ١٢١).

الأربعة وهي كمالُ المنزِل وهو رب العالمين سبحانه وتعالىٰ، وأمانة الرسول وهو جبريل عليه السلام، ووعيُ النذير وهو النبي ﷺ، وبيانُ اللغة وهي العربية =تمَّ لكتاب الله تعالىٰ كمالُ معانيه وألفاظه، وبَلَغَنا غَضًّا طريًّا كما أنزله الله.

فهذا الكتاب الكريم جامعٌ لخيري الدنيا والآخرة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة النحل:٨٩].، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأنعام:٣٨].، صدقٌ في أخباره عدلٌ في أحكامه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [سورة الأنعام:١١٥].

وقصصُ القرآن من جملة أخباره حقٌّ كلها وليست بخيالات: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة آل عمران:٦٢].، ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة القصص:٣].، ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الكهف:١٣].

وصفه تعالىٰ بأنه ثقيل المحمَل فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل:٥].، وبأنه فاصلٌ بين الحق والباطل وجدٌّ لا هزل فيه ولا لعب: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الطارق:١٣].

وجماع ذلك أن القرآن العظيم كتابُ هدايةٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء:٩].، فيجب أن يكون طلب الهداية هو الباعث لجميع الدراسات المتعلقة به.

وقد تم له مع ذلك أن بلغ الغايةَ في الفصاحة والبيان، فلم يطعن عليه فصيحٌ بقصورِ لفظٍ أو فسادِ نظم، ولو كان فيه شيءٌ من ذلك "لَسَبَقَ إلىٰ الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتجُّ عليه بالقرآن، ويجعله العَلَم لنبوَّتِه، والدليلَ علىٰ صدقه،

ويتحداه في موطن بعد موطن علىٰ أن يأتي بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللّدد في الخصام، مع اللُّبِّ والنُّهىٰ وأصالة الرّأي"[1]، "فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحدٌ من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصرِ سورةٍ منه ناهضٌ من بلغائهم، علىٰ أنهم كانوا أكثر من حصىٰ البطحاء، وأوفر عددًا من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادَّة والمضارَّة.. إن أتاهم أحدٌ بمفخَرةٍ أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثُرَةٍ رموه بمآثر، وقد جرَّد لهم الحجةَ أوَّلا، والسيفَ آخرًا، فلم يُعارِضوا إلا السيف وحده، علىٰ أنَّ السيف القاضب مخراقُ لاعب إن لم تُمضِ الحجَّةُ حَدَّه، فما أعرضوا عن معارضة الحجةِ إلا لعلمهم أنَّ البحرَ قد زَخَرَ فطَمَّ علىٰ الكواكب، وأنَّ الشمسَ قد أشرقت فطمست نورَ الكواكب"[2].

والحديث عن القرآن والتنويه بشأنه طويل؛ إذ فضله علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ خلقه، ولكنَّ المقصودَ هنا الإشارةُ إلىٰ أنَّ خصوصيتَه هذه يجب أن تكون أصلًا وأساسًا ومنطلقًا يصحبُ دارسَ بلاغتِه، فيستحضرُ أنه كلام الله، وأنه آيةُ صدق النبي ﷺ، ويطلب الهدىٰ منه، ويعزِّره ويوقِّره، ويصونه عن الظنون الكاذبة، والمحتملات اللغوية المناقضة لنصٍّ أو إجماع، ويَجمعَ هَمَّه علىٰ استنباط عجيب بلاغته، واستخراج بديع أساليبه، وتمييز محكم نسجه، وهذا بخلاف ما إذا درس الشعرَ أو غيره من نصوص البلغاء، فإنه حينئذٍ ينظر في نصٍّ بشريٍّ يعلو حينًا ويسفل حينا،

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٢).

(٢) الكشاف (١/ ٦). وأجمل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الدليل بقوله: "وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة". الجواب الصحيح (٤/ ١٧٤).

ويصيب ويخطئ، ويعبر باللفظ وغيرُه أحسن منه، ويمكن محاكاته ومجاراته، وهذا ما سلكه أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) فقد جعل خصوصيةَ القرآن وخروجَه عن عادات الآدميين وتجاوزَه لقدراتهم منطلقًا لوجوه إعجازه(١)، وجرىٰ علىٰ ذلك من قبل أبوسليمان الخطابي فرَدَّ قصورَ البشر عن الإتيان بمثل القرآن لأمور ترجع إلىٰ تلك الخصوصية التي مردها إلىٰ قصور علم البشر عن علم الله تعالىٰ الذي أحاط بكل شيء علمًا، فعلمهم قاصرٌ عن الإحاطة بألفاظ العربية، وأفهامهم لا تعرف جميع المعاني، ولا تدرك جميع وجوه نظم الكلام الذي به يأتلف(٢).

وهذه الخصوصية لكتاب الله التي جعلناها منطلقًا لدراسة بلاغة السورة، متفقٌ عليها، وإنما قد يقع النزاع في بعض الصور من جهة كونها مناسبةً لتلك الخصوصية أو غير مناسبة، ومن أثر ذلك في تراثنا أننا نجد كتبًا كثيرةً في نقد الشعر والمفاضلةِ بين الشعراء، وتبيين مواطن الإجادة، والكشف عن مواضع القصور، فإنَّ مَن لم يميِّز الرديء لم يستحسن الحسن، وبضدِّها تتبين الأشياء، ولذا ألف المرزباني كتابه: (الموشح في مآخذ العلماء علىٰ الشعراء)، وكتب الآمدي (الموازنة بين أبي تمام والبحتري)، ووقف القاضي الجرجاني حكمًا عدلًا بين المتنبي وخصومه في كتابه: (الوساطة)، ولا يوجد شيءٌ من ذلك حول القرآن لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، بالغٌ الغاية في البيان، وبذلك علل بعض الباحثين(٣) إكثار عبد القاهر في الدلائل من التمثيل بالشعر ولم يمثل بآي القرآن إلا نادرًا مع كونه يكتب في إعجاز القرآن، وذلك لأن

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني (٤٨، ٥٢- ٥٧). وينظر: الإعجاز البلاغي لمحمد أبو موسىٰ (١٨٩).

(٢) ينظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي (٣٢، ٣٣).

(٣) ينظر: من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر (٤٧).

الشعر -دون القرآن- هو الذي يمكن أن يقع فيه القصور، وبنقده وبيان حَسَنِه من قبيحه يظهر ميزان البلاغة ومعيارها.

ومن أثر مراعاة تلك الخصوصية أيضًا: نقد المصطلح البلاغي في ضوء مكانة القرآن، فهناك من فنون البلاغة ما لا يجوز إطلاقه علىٰ آيات القرآن[1]، كالهزل الذي يراد به الجد، والتناقض، والإعنات، والإيهام، والغزل، ومجاز التعقيد، والإيهام، وغيرها، علىٰ أنَّ منها ما لا إشكال في مضمونه وإنما الإشكالُ في اسمه.

(١) كتب أستاذنا الدكتور عبد المحسن العسكر: (الإنصاف في المصطلحات البلاغية المنفية من القرآن).

## المطلب الثاني: ترتيب الآيات

ترتيب الآيات في سورها توقيفيٌّ بإجماع المسلمين، حكىٰ الإجماع أبو جعفر ابن الزبير وابن تيمية والزركشي وغيرهم(١).

وهذا منطلقٌ مهمٌ لدارس بلاغة السورة، إذ تنبني عليه كثيرٌ من فنون البلاغة كالتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وحسن الابتداء أو براعة الاستهلال، وحسن الختام، والخروج، والتخلص، والاعتراض، والاستطراد، والافتنان، ومراعاة النظير أو الائتلاف، والسجع أو الفواصل، وتعادل الأوزان، والطباق والمقابلة، وغير ذلك من ألوان البلاغة التي تعود إلىٰ التناسب وارتباط أجزاء النظم.

فلو كان ترتيب الآيات اجتهاديًّا لتفرَّق نظر البلاغي إلىٰ تلك الأنواع بين الاستدلال بها أو الاستدلال لها؛ فيستدل بها علىٰ أحد القولين، وتكون من جملة المرجِّحات كما هو شأن علوم الآلة عند النظر في مسائل الخلاف، أو يستدل لها وذلك إذا كان القول بترتيبها قطعيًّا، وإذا عُلِم أن ترتيبها مقطوعٌ به، اجتمع هَمُّ البلاغي علىٰ تَطَلُّب محاسن تلك الأنواع في نظم السورة، مؤسِّسًا دَرْسَه علىٰ ما قرر البلاغيون، ومتمِّمًا جهودهم بما لاح له من طول التأمل والتدبر في عجيب النظم وبديع التأليف.

(١) ينظر: البرهان لابن الزبير (١٨٢)، الفروع لابن مفلح (٢/ ١٨٢)، الإقناع للحجاوي (١/ ١١٩)، البرهان للزركشي (١/ ٢٥٦).

**المطلب الثالث: معرفةُ معاني الآيات عند السلف وعدمُ مخالفة الإجماع**

من المعلوم أنه لا يمكن فهم خطابٍ إلا بعد معرفة اللغة المخاطَب بها، فإذا عُلِمتْ أمكن الإفهام والإبانة، ولذا لم يرسل الله نبيًّا إلا بلغة قومه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، ومن هنا لم يحلَّ لغير العالم بالعربية أن يتكلم في كتاب الله، كما قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب"(١).

وإذا تقرر ذلك فيجب أن يُعلَم أن العربية وحدها لا تستقلُّ بفهم الوحي، إذ لا بد من العلم بالسنة لأنها مبيِّنةٌ للقرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل:٤٤]، ولا بد كذلك مِن معرفةِ أقوالِ الصحابة ومَن أخذ عنهم، وعدمِ مخالفة إجماعهم، لأنهم مع علمهم بالعربية قد شهدوا التنزيل، وعلموا عن رسول الله ﷺ ما لم نعلم، وشهدوا من قرائن الأقوال وشواهد الأحوال ما جعلهم أعلمَ الناس بمراد الله، مع ما لهم من فضل الصحبة ولسان الصدق، فمحالٌ أن يغيب الحقُّ عن جميعهم ثم يدركه من بعدهم. ومِن مخالفة الإجماعِ إحداثُ قولٍ ثالثٍ(٢) لم يقولوا به، لأنَّ اختلافَهم علىٰ قولين إجماعٌ علىٰ أنَّ الحقَّ في أحدهما.

ومما يدل علىٰ ذلك أن المصطلح الشرعي -في الغالب- أخص من المعنىٰ اللغوي، كالإسلام والإيمان والإحسان، والتوحيد والشرك، والصلاة والصيام والزكاة والحج، وغيرها، فمن استقل باللغة في فهمها ضَلَّ وخرج مِن الدين جملةً.

ثم إن الجملة في العربية -والمفردةَ أيضًا- قد تحتمل أكثر من معنىٰ فتفتقر إلىٰ

---

(١) البرهان للزركشي (١/ ٢٩٢).

(٢) وهو قول الجمهور. ينظر: شرح مختصر الروضة (٣/ ٨٨).

نصٍّ آخر يوضح المراد؛ فالمجمل لا بد له من بيان، والعام يحتمل أن يكون مخصوصًا أو مرادًا به الخصوص، والظاهر قد يكون مؤولًا، والنص قد يكون منسوخًا، وقد بحث ذلك الأصوليون.

والمقصود أنَّ كتاب الله لا يمكن فهمه بمجرَّد اللغة، فلا بد أن يصحبها تفسيرُ كلام الله بكلامه وذلك تفسيرُ القرآن بالقرآن، وتفسيرُه بالسنة، وبأقوال السلف.

فهذا أساسٌ مهمٌّ يجب أن يَنطلق منه دارسُ بلاغة السورة، وهو معرفة المعاني الشرعية المستفادة من النصوص أو الإجماع لئلا يخالفها، لينطلق بعد ذلك بما آتاه الله من العلم بالعربية وعلم البلاغة علىٰ وجه الخصوص، إلىٰ تبيُّن إعجاز القرآن في لفظه ومعناه.

وليتنبه إلىٰ هذا القيد: (حتىٰ لا يخالفها)، فالممنوعُ مخالفتُها لا الزيادةُ عليها، وفرقٌ بين الأمرين، فما دلت عليه اللغةُ مما لم يخالف نصًّا ولا إجماعًا فهو مقبول.

وقد رأيت دراساتٍ بلاغيةً لعلماءَ لا يُشك في عمق معرفتهم بعلم البلاغة، طرقها الضعف من جهة الإخلال بهذا الأصل، فبنوا تقريراتهم علىٰ معانٍ باطلةٍ، فكان "مثلهم مثلُ من بنىٰ دارًا حسنةً علىٰ أساسٍ مغصوب، فلمَّا جاء صاحبُ الأساس ونازَعه في الأساس وقَلَعه انهدمت تلك الدَّار"[1].

وسيأتي مزيدُ تقريرٍ لهذا الأصل في المنطلق السابع وهو (حدودُ علمِ البلاغة).

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/ ١٠).

## المطلب الرابع: السياق

السياق: هو السِّبَاقُ واللِّحاق[١]، أي: ما قبل الموضع الذي يُراد بيانُ معناه وما بعده، وهذا المعنىٰ للسياق هو الغالب في استعمالات العلماء عند الإطلاق، فيعنون به سياق المقال، وهو العلاقات الداخلية للنص، وأما إذا أريد به الحال فيُقيَّد بالإضافة فيقال: سياق الحال، والأكثر تسميته حينئذٍ الحال أو المقام[٢]، ومن الحال في علوم القرآن: أسباب النزول والمكي والمدني وهو ما سأتحدث عنه في الأصل التالي.

فالمقصود هنا سياق المقال، وهو من أول ما يجب مراعاته لفهم النص؛ فإن الكلام يُساق لغايةٍ يتم بيانُها بتمام الكلام، ولذا نجد أولَ الكلام يتضحُ بآخره، كما يتضحُ آخرُه بأوله، ويُرَدُّ ما خفي منه لما عُلِم، "فالسياق يرشدُ إلىٰ تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالَّة علىٰ مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"[٣]، ولذلك قال مسلم بن يسار: "إذا حدثتَ عن الله فقف حتىٰ تنظر ما قبله وما بعده"[٤].

والمراد بـ(ما قبل الآية وما بعدها) الموضوعُ المحدَّث عنه الذي سَبَقَ الكلامَ ولَحِقَه، سواءٌ كان في آيةٍ أو آيتين أو في مقطعٍ.

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين (١/ ١١٣).

(٢) ينظر: الوحدة السياقية للسورة (٥٣، ٥٤).

(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٣١٤). وأصله مستفادٌ من الإمام للعز بن عبد السلام (١٥٩).

(٤) مقدمة التفسير لابن تيمية (ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٣/ ٣٧٤). وهو من مرويات أبي عبيد في فضائل القرآن (٣٧٧).

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية إهمالَ السياق من أسباب الغلط في فهم المراد، لا سيما عند من يفسِّر القرآن بمجرد الاحتمالات اللغوية للألفاظ(١).

وإذا كان حديثنا هنا عن (منهج دراسة بلاغة السورة) فإن السياق يجب أن يكون ركنًا من أركانه، فكلُّ وجهٍ بلاغيٍّ ملائمٍ للسياق فهو مقبول، وكلُّ ما باينَ السياقَ فيجب تأخيرُه أو اطِّراحُه، وعند تزاحم النكات فإن أقواها ألصقها بالسياق.

قال العِزُّ بن عبد السلام: "فكلُّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحًا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذَمًّا، فما كان مدحًا بالوضع فوقع في سياق الذمِّ صار ذمًّا واستهزاءً وتهكُّمًا بعرف الاستعمال، مثاله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان:٤٩]، أي: الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق الذم، وكذلك قول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [سورة هود:٨٧]. أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه"(٢). فهاتان الآيتان لو جردتا عن سياقهما لفهمنا منهما المدح، فإذا نظرنا في سياقهما قطعنا بأن المرادَ ضدُّه وهو الذم.

والأغراض البلاغية إنما تتبين بالتأمل في بناء الكلام وتركيبه وسياقه، ولذلك لم يستقص البلاغيون في ذكرها، بل عوَّلوا علىٰ السياق، كما قال السعد في المعاني البلاغية للاستفهام: "ولا تنحصر المتولِّداتُ فيما ذكره المصنِّف.. بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك علىٰ معنًىٰ سمعتَه أو مثالٍ وجدتَه من غير أن تتخطاه، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية، والله الهادي"(٣).

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٩٤).

(٢) الإمام في بيان أدلة الأحكام (١٥٩).

(٣) المطول (٤٣٦).

كما نجد العلماء رحمهم الله عند تأملهم لأسرار الفروق الدقيقة بين متشابه النظم، يستندون كثيرًا علىٰ السياق.

**وبناء على ما تقدم من أهمية دراسة بلاغة النص في سياقه، أشير إلى أمرين:**

**أولهما:** أنَّ المصريَّ نَقَدَ البلاغيين في تفريقهم للشواهد القرآنية علىٰ الأبواب، لأنه لا يظهر بها إعجاز القرآن، قال: "ولما رأيت المؤلفين في هذا الشأن لم يذهبوا مذهبًا يقوم بمثله علىٰ مخالفهم البرهان، لكونهم بوبوا تواليفهم أبوابًا مترجمةً بنعوت محاسن الكلام الذي سماه المتأخرون بالبديع، وانتزعوا آيات تدخل محاسنها في تلك الأبواب، ولم يعدلوا إلىٰ سورة بكمالها فيُظهروا إعجازها بالنسبة إلىٰ قصيدة فاضلة، أو خطبة هائلة، لتقطع حجة الزنديق، وتبطل دعوىٰ كل من خرج عن الطريق، فإنا لو قال لنا بعض الزنادقة: إنه ما من قصيدة أو خطبة للعرب إلا ويندر فيها البيت الطائل، والمعنىٰ الهائل، فأي مزية لهذا الكلام العظيم علىٰ غيره من الكلام؟ ولو سلكوا غير طريقتهم في إعجاز القرآن لما ورد عليهم هذا الدَّخَل، ولما توجه عليهم بسببه الملام.." (١).

**وثانيهما:** أنَّ طريقة السكاكي والقزويني في إيراد الشاهد البلاغي (القرآني والشعري) وإن كانت فاضلةً، إلا أن الفُضْلَىٰ طريقةُ عبد القاهر، "فها هو ذا ينشد خمسة أبيات لعلي بن محمد بن جعفر ثم يقول: (المقصودُ البيتُ الأخير، ولكنَّ البيتَ إذا قُطع عن القطعة كان كالكعاب تُفرَد عن الأتراب، فيظهر فيها ذُلُّ الاغتراب، والجوهرةُ الثمينة مع أخواتها في العقد أبهىٰ في العين، وأملأُ بالزين، منها إذا أُفرِدت

(١) الخواطر السوانح (٧٢).

عن النظائر، وبَدَت فَذَّةً للناظر)[١]. ولا شك أن هذه النظرة هي مما أعلىٰ شأن عبد القاهر، لأنها تعين علىٰ الإقناع بجمال الأسلوب، وهو يكرر المبدأ في قوله: (فأنتَ لذلك لا تُكْبِرُ شأنَ صاحبه، ولا تقضي له بالحِذق والأستاذيَّة وسَعة الذَّرْع وشدَّة المُنَّة، حتىٰ تستوفي القطعة وتأتي علىٰ عدَّة أبيات)[٢]»[٣].

وأختم بالإشارة إلىٰ أن هذا الأصل وهو مراعاة السياق، يجب أن يكون مُؤازِرًا ومُعاضِدًا للأدوات الأخرىٰ في فهم النص، فقد غلا فيه بعض المفسرين من المعاصرين حتىٰ خالف اتفاق السلف في تفسير بعض الآي محتجًّا به[٤]، أو رَدَّ معانيَ مؤيَّدةً بالتفسير النبوي استنادًا عليه، وهذا احتجاجٌ في غير محله، وضربٌ للأدلة ببعضها، وإنما المنبغي بعد معرفة الأسس والأصول أن تُعرف مراتبُها لنعرف ما الذي نقدمه عند التعارض أو عند توهم التعارض.

---

(١) أسرار البلاغة (٢٠٦).

(٢) دلائل الإعجاز (٨٨).

(٣) منهج التعامل مع الشاهد البلاغي (٥١٢). وينظر: النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق (٤)، الأسلوب في الإعجاز البلاغي (٣٠٢).

(٤) ينظر: تفسير القرآن بالقرآن تأصيل وتقويم (١٩٢، ٥٤٩)، منهج المدرسة العقلية في التفسير (١/ ٢٣٣).

**المطلب الخامس: أسبابُ النزول وملابساتُه ومعرفة المكي من المدني**

**سبب النزول:** ما نزلت الآية أو السورة من أجله وفي وقت وقوعه، وهذا القيد: "في وقت وقوعه" لإخراج الأخبار عن الأمم الماضية ونحوها، كسورة الفيل فإنها في قصة قدوم الحبشة، ولكنها لم تنزل وقت وقوعها فلا يصح أن تكون سببًا لنزولها. وليس كل آية لها سبب نزول فأكثر القرآن نزل ابتداءً من غير سبب خاص(١).

**والمقصود بملابسات النزول:** ما اتصل بالنزول وإن لم يكن سببًا له، كحال الخطاب والمخاطَب، وترتيب نزول السورة بين السور، ونزولها دفعة واحدة أو مفرقة، ونحو ذلك.

**وفائدة معرفة أسباب النزول:** فهم الخطاب، "فإنَّ العلمَ بالسببِ يورث العلم بالمسبَّب"(٢)، وقد خفيت معاني آيات علىٰ جماعةٍ لما جهلوا سبب النزول، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين "أنَّ مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلىٰ ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه، إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سورة آل عمران:١٨٧].

إلىٰ قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [سورة آل عمران:١٨٨]."، دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه

---

(١) الإتقان (١/ ٢٠٨).

(٢) مقدمة التفسير (ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٣/ ٣٣٩)، الموافقات (٤/ ١٤٨)، الإتقان (١/ ١٩٠).

إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه"(١).

**والمكي:** ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، فضابطُ المكيِّ والمدني زمانيٌّ لا مكاني، فما نزل في مكة في حجة الوداع مدنيٌّ لأنه نزل بعد الهجرة، وهذا أشهر ما قيل في معنىٰ المكي والمدني(٢).

وفائدة معرفة المكي والمدني: فهم الخطاب أيضًا، فإنه مبيِّنٌ للحال التي كانوا عليها؛ فحال المسلمين بعد الهجرة ليس كحالهم قبلها، وأصنافُ المخاطبين مختلفةٌ أيضًا؛ ففي العهد المكي كان المسلمون بمكةَ قلةً والظهورُ للمشركين، وأما في العهد المدني فكثر المسلمون وقويت شوكتهم، وحينها نجم النفاق، وفي المدينة التقىٰ المسلمون بأهل الكتاب.. ولاختلاف الحال بين العهدين اختلف الخطاب القرآني في سوره المكية والمدنية من جهة تشريعه وأسلوبه اختلافًا يتبينه قارئُ القرآن.

فتبين بما تقدم أن الغاية من العناية بهذا الأصل: فهم النص، وذلك بمعرفة سببه والحال عند نزوله، ومما يتبع ذلك العلم بوقت نزولها الخاص؛ فإن المكي والمدني وقتان ممتدان، فإذا علم وقت النزول علىٰ التحديد فهو أحكم لفهمه، ولذلك قال الشاطبي: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم علىٰ المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، علىٰ حسب ترتيبه في التنزيل"(٣)، وكذلك معرفة سبب النزول، والعلمُ بهما -أي: بزمان النزول وسببه- مما ميَّز علم

(١) ينظر تمام الخبر في البخاري (٤٥٤٦)، ومسلم (٢٧٧٨).

(٢) الإتقان (١/ ٤٥).

(٣) الموافقات (٤/ ٢٥٦).

ابن مسعود رضي الله عنه بكتاب الله، وقد عَلِم ذلك من نفسه فقال: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه"(١).

وإذا كانت معرفة وقتِ النزول وسبَبِه معينةً علىٰ فهم الآية، فإنها أيضًا أعظم معينٍ في الدراسة البلاغية، فإن البلاغة كما عرفها الخطيب: "مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته"(٢)، فمَن جَهِل الحالَ لم يعرف الكلامَ المطابق لمقتضاه، "وارتفاعُ شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطُه بعدم مطابقته له"(٣).

وللشاطبي تقريرٌ مهمٌّ في وجوب معرفة أسباب النزول وربطه بعلم البلاغة حيث قال: "معرفة أسباب التنزيل لازمةٌ لمن أراد عِلْمَ القرآن، والدليلُ علىٰ ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يُعرف به إعجازُ نظم القرآن فضلًا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره علىٰ معرفة مقتضيات الأحوال؛ حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالَيْنِ، وبحسب مخاطبَين، وبحسب غير ذلك؛ كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنىٰ

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨٩)، ومسلم (٢٤٦٣). قال الشاطبي عقب خبر ابن مسعود: "وهذا يشير إلىٰ أنَّ علم الأسباب من العلوم التي يكون العالِمُ بها عالِمًا بالقرآن". الموافقات (٤/ ١٥٣).

(٢) الإيضاح (٢٢).

(٣) السابق (٢٣).

الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدل علىٰ معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنىٰ معرفة السبب هو معنىٰ معرفة مقتضىٰ الحال، وينشأ عن هذا الوجه:

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتىٰ يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع"(١).

وصفوة القول أنَّ أسبابَ النزول وملابساتِه ومعرفةَ المكي من المدني، مِن مقتضىٰ الحال الذي يرشد إلىٰ الخصوصيات في التعبير القرآني، فيجب أن يكون منطلقًا عند دراسة بلاغة السورة.

وإذا كان الأصل السابق في (سياق المقال) فإن هذا الأصل في (سياق الحال)، وقد جاء في كلام الشاطبي المتقدِّم الإشارةُ إلىٰ أنَّ منه معرفةَ المخاطِب والمخاطَب به، وهو داخلٌ في مقتضىٰ الحال عند البلاغيين، كقول الخطيب: "وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي"(٢)، وقد لحظ الجاحظ اختلاف الأسلوب القرآني بناء علىٰ اختلاف المخاطَب فقال: "ورأينا الله تبارك وتعالىٰ إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكىٰ عنهم جعله مبسوطًا وزاد في الكلام"(٣).

---

(١) الموافقات (٤/ ١٤٦).

(٢) الإيضاح (٢٣).

(٣) الحيوان (١/ ٦٤).

وقد قلت في عنوان هذا الأصل: (أسباب النزول وملابساته..) فذكرتُ (ملابسات النزول) ليعم ما اتصل بالنزول وإن لم يكن سببًا له، وهو من (الحال) الذي يقتضي خصوصيةً في الكلام، ولكلِّ نصٍّ قرائنُ مختلفةٌ تحتفُّ به تضيء جوانب مما قد يخفىٰ منه، وقد نبه أبو المعالي الجويني علىٰ أن هذه القرائن الحالية لا يمكن حصرها فقال بعد أن ذكر أنَّ الدَّالَّ لا يلزم أن يكون لفظًا: "وقرائن الأحوال مما لا تنضبط، ولا سبيل إلىٰ حصر أجناسها وتمييزها بالنعوت والأوصاف عن أغيارها، وهذا كما أن خَجَل الخَجِل ووجَل الوجِل وجبن الجبان وبسالة الباسل تُعلم ضرورةً عند ثبوت الأوصاف، فلو أردنا نعتها لم نقدر عليها.."[1]، ومع ذلك فإن ما ذكرنا هو أهم طرق معرفة الحال؛ أعني زمان النزول ومكانه وسببه، وعند دراسة بلاغة السورة سيرىٰ الدارس أنها موردٌ ثَـرٌّ يَرجِعُ إليه، وكنزٌ ثمينٌ يُعوِّلُ عليه.

(١) التلخيص في أصول الفقه (٢/ ٢٨). وينظر: القرائن عند الأصوليين (١/ ١٥٠).

## المطلب السادس: مقصد السورة

لكل سورةٍ مقصدٌ جامعٌ لآياتها، وخيطٌ ناظمٌ لموضوعاتها، ليس في السورة تصريحٌ بأنه المقصد ولكنه يفهم من مجموعها، فهو -ولله المثل الأعلىٰ- أشبه ما يكون بعنوان الخطبة، فقد لا يصرِّح به الخطيب ولكن السامع يعرفه من جملتها؛ فاتحتها ومضمونها وخاتمتها، وإذا لم يعرفه فهو قصورٌ منه في فهم المراد، إلا إن كان الخطيب عَيِيًّا يُلقي مِزَعًا من المعاني لا يجمعها جامع.

وهذا الأصل -وهو مقصد السورة- كان معلومًا عند السف(١)؛ فعن قتادة أنه عَدَّدَ جملةً من النعم الواردة في سورة النحل ثم قال: ولذلك هذه السورة تسمىٰ سورةَ النِّعَم، وقال ابن عباس في سورة الليل: إني لأقول: هذه السورة نزلت في السماحة والبخل، وعن عمرو بن دينار أنه حلف أن سورة التكاثر نزلت في التُّجَّار، أي: لأنَّ التكاثر يكون في الغالب مع كثرة المال والولد، وذلك في التجار أكثر.

ومقصد السورة أو مغزاها قد يخفىٰ فلا يعرفه إلا العلماء بالتفسير، حتىٰ إن عمر رضي الله عنه -كما في البخاري- لما كان يُدخِلُ ابنَ عباسٍ في مجلسه مع أشياخ بدر، وكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فأراد عمر أن يريهم فضله فتلا عليهم سورة النصر وقال: ما تقولون فيها؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أَجَلُ رسولِ الله أعلمه إياه، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول(٢).

---

(١) ينظر: علم مقاصد السور (٢١).

(٢) صحيح البخاري (٤٢٩٤).

فجعل عمر معرفةَ مقصدِ السورة شاهدًا علىٰ علم ابن عباس رضي الله عنهم.

إذا تقرر هذا -وهو أهمية معرفة مقاصد الكلام وأغراضه، وأن لكل سورة مقصدًا- فإنه لا غنىٰ عن طلبه للمفسر عمومًا وللبلاغي خصوصًا، فإنه يُحكِمُ فهمَ أجزاء السورة، ويجعل للبلاغي طريقًا لاحبًا في استظهار البيان القرآني، ولذلك عدَدتُه ضمن الأسس والمنطلقات، "فعندما نريد أن نقدِّر جمالَ لوحةٍ مرسومةٍ لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزءٍ ضيِّقٍ منها حيث لا نجد إلا ألوانًا تتجاور أو تتنافر أحيانًا، بل يجب أن نرجع قليلًا إلىٰ الوراء، ليتسع مجال الرؤية وتحيط بالكل في نظرةٍ شاملة تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب. فبمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورةٍ من سور القرآن الكريم لنقدر أبعادها الحقيقية.. ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنَّ هناك تخطيطًا حقيقيًّا واضحًا ومحدَّدًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة.."[1].

وقد جعل الفراهيُّ بحثَ الأصولِ الكليةِ لنظام الكلام عمومًا ولنظام السورة خصوصًا فَنًّا مستقلًّا من البلاغة، بل هو الذروة العليا منها[2].

وقال د. محمد أبو موسىٰ: "هو من وجوه بلاغة القرآن غير المدروسة كما ينبغي؛ حركة المعنىٰ داخل السورة، ومراقبة نموه وامتداده، وذهابه وارتداده"[3].

---

(١) مدخل إلىٰ القرآن الكريم لدراز (١١٩). وينظر: الموافقات (٤/ ٢٦٦- ٢٦٨).

(٢) دلائل النظام (١١).

(٣) من أسرار التعبير القرآني (٢٦).

**ولمعرفة غرض السورة ومقصدها طرقٌ منها:**

**- اسم السورة؛ "فإنَّ اسم كل سورةٍ مترجمٌ عن مقصودها، لأنَّ اسمَ كلِّ شيء تَلحَظُ المناسبةَ بينه وبين مسمَّاه، عنوانُه الدَّالُّ إجمالًا علىٰ تفصيل ما فيه"(١).**

**ورأىٰ ابن الزبير الغرناطي أنَّ ذلك ليس بلازم، فقد تسمىٰ السورة بلفظٍ لتكرره فيها، أو لتفصيل أحواله، أو لندرته، أو غير ذلك، كما هي عادة العرب ومنازعهم في التسمية(٢).**

**- ومنها: كونـها مكيةً أو مدنية، فإنَّ غالب السور المكية تكون مقرِّرَةً لثلاثة أمور: التوحيد، والنبوة، والبعث(٣)، وفي السور المدنية يَرِد ذكرُ الأحكام أو الشرائع ويُتَطَرَّق للمنافقين من أصناف المكلفين، فيُراعىٰ ذلك عند تتبع عمود السورة ومحورها.**

**- ومنها: تدبر القصص الواردة في السورة، فإنَّ القصص في القرآن ليست مقصدًا في ذاتـها بل لها مغزًىٰ ومقصدٌ(٤)، وقد تتكرر القصة الواحدة وفي كل موضع يُذكر مِن أجزاءها ما يَخدم السياقَ الذي وردت فيه(٥)، والمقصود أن القصة مرشدةٌ إلىٰ الغرض الكلي للسورة.**

---

**(١) نظم الدرر (١/ ١٨)، مصاعد النظر (١/ ٢٠٩). وقال في مقدمة مصاعد النظر (١/ ٩٨): "فهذا كتابٌ سميته: مصاعد النظر، لِلإشراف علىٰ مقاصد السور، ويصلح أن يُسَمَّىٰ: المقصد الأسمىٰ في مطابقة اسم كل سورة للمسمىٰ".**

**(٢) ينظر: ملاك التأويل (١/ ١٧٤).**

**(٣) ينظر: الموافقات (٤/ ٢٧٠).**

**(٤) يقول الفراهي: "النظر في آيات السور لا يدع شكًّا في أن عمود الكلام ليس إلا الأمور الكلية التي لا تتعلق بوقتٍ وزمان..". دلائل النظام (٦٢).**

**(٥) ينظر: الموافقات (٤/ ٢٧٤)، نظم الدرر (١٤/ ٤)، التحرير والتنوير (١/ ٦٤).**

- ومنها: فاتحة السورة وخاتمتها، وموضوعات مقاطعها، وسبب نزولها، وغير ذلك.

ومما يجدر التنبيه عليه أنَّ السور في ظهور مقاصدها ليست علىٰ درجة واحدة[1]، فقِصَار المفصل ليست كالسور الطوال التي تُثَنَّىٰ فيها المعاني، ولذلك يقع تفاوتٌ في تعيينها، وهو مما يوجب شدة التَّحَرِّي واستنفاد الوسع في طلبه؛ فهذا الباب لا يحتمل النظرة العجلىٰ بل لا بد من طول التأمل والتدبر.

(١) ينظر: مدخل إلىٰ القرآن الكريم (١٢١)، دلائل النظام (٧٣، ٧٧)، آل حم (غافر، فصلت) (١٤).

**المطلب السابع**:

**حدودُ علمِ البلاغة في بيان المعاني وترجيحِ بعضِها على بعض**

علم البلاغة من ضمن علوم العربية التي هي من شروط الاجتهاد في الشريعة(١)، وبه يعرف إعجاز القرآن، ولذلك جعله أبو هلال "أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه"(٢)، ومنزلته معلومة، والتفاسيرُ التي عُنِيت به أظهر شاهدٍ علىٰ تلك المنزلة، ولذلك قال الزركشي: "هو أعظم أركان المفسر"(٣).

وهو مِن جملة علومٍ تتعاضد لطلب مقصود الشارع، فلا ينفرد عنها بالأحكام، ولا يستأثر دونـها؛ قال ابن حزم: "العلوم يتعلق بعضها ببعض ولا يستغني منها علمٌ عن غيره"(٤)، بل ذَكَر أنَّ هذا ما يقتضيه التخصصُ في العلم فقال: "ومَن اقتصر علىٰ علمٍ واحدٍ لـم يطالع غيره أوشك أن يكون ضُحْكَةً، وكان ما خفي عليه مِن علمه الذي اقتصر عليه، أكثرَ مما أدرك منه، لِتعلُّقِ العلوم بعضها ببعض"(٥)، وفي ذلك يقول الطوفي: "العلوم والفنون والمسائل يمد بعضها بعضا، ويبرهن في بعضها علىٰ بعض، فمن جهل فَنًّا نقص عليه مادة فن آخر، ولهذا تزيد مادة العلم في فنٍّ بتحصيله فَنًّا آخر"(٦)، ولذلك "لا يوجد علمٌ من علوم الآلة يستقلُّ بالترجيح، وهو موضعٌ يغلط فيه بعض المصنِّفين، حيث يكون مُولَعًا بعلمٍ منها، فيرتضي نقدَه، ولا يستفتي أحدًا بعده، وهو قصورٌ في النظر، يتبعه خللٌ في النتيجة، والمنهجُ الصحيح أن يستعين بالعلوم معًا، ويُعمِل في كلِّ محلٍّ الآلةَ المناسبةَ له"(٧).

---

(١) ينظر: جمع الجوامع مع شرحه تشنيف المسامع (٤/ ٥٦٨)، الموافقات (٥/ ٥٢).

(٢) كتاب الصناعتين (١).

(٣) البرهان (١/ ٣١١).

(٤) مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم ٤/ ٨١).

(٥) السابق (٤/ ٧٧).

(٦) شرح مختصر الروضة (٣/ ٥٨٦).

(٧) أثر البلاغة في توجيه مشكل القرآن (١٣).

إذا عُلِم ذلك فإن البلاغيَّ يضع هذا العلم موضعه، فلا يدرس سورةً إلا بعد أن يعلم تفسيرها عند أئمة التفسير المختصين به كابن جرير وابن كثير وغيرهما، الذين يعنون بتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وينقلون أقوال السلف، وحينئذٍ فإنه يبني تأملاته البلاغية وفق المعنىٰ الصحيح للآيات، ويرجِّح بين ما اختلفوا فيه إن وجد مرجِّحًا.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [سورة الأعراف:١٤٩]، فهذا التركيب: (سقط في أيديهم) لا خلاف بين المفسرين أن المراد به النَّدَم، فهذا القدر يتمسَّك به البلاغي ثم ينطلق ليبين وجه بلاغته، وأصله، واسمه، وسر التعبير به، لا سيما إذا علم أن الزجاجي قال: "إنه نظمٌ لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب، ولم يوجد في أشعارهم"(١).

وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك في الأساس الثالث من أسس المنهج.

والقول الجامع هنا هو استحضار تعريف علم البلاغة: "مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته"، فكل ما يتعلق بذلك فهو من شأن البلاغي، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية قد يلتقي مع غيره من العلوم، مبتدِأً مِن حيث وقفتْ، فمثلًا: في قول الله تعالىٰ: (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) لو أراد الوقوف مع وجه التعبير بأفعل التفضيل مع كونهم مأمورين بأخذ الأحسن والحسن، فإنه يستحضر أولًا ما يقوله النحوي وهو أنَّ أفعل التفضيل قد يأتي علىٰ غير بابه من المفاضلة، ثم يبحث هو في سبب العدول إلىٰ هذه الصيغة في هذا الموضع، فالنحوي قرر أن هذا التعبير صوابٌ لا خطأ، والبلاغي قرر أنه الأحسن والأبلغ في هذا المقام.

(١) التفسير البسيط (٩/ ٣٦١).

## المطلب الثامن

## علم البلاغة راسمٌ لأصول البلاغة وكبرى مسائلها وليس محيطًا بـها

علم البلاغة الصناعيُّ ليس مستوعبًا لبلاغة العرب فضلًا عن بلاغة القرآن، فالمفردة مثلًا لـم تُخَصَّ بالتبويب في كتب البلاغة، ولـم تأخذ حقها من العناية من جهة مادتـها، ومن جهة إفرادها وتثنيتها وجمعها، وتذكيرها وتأنيثها، وكذلك ما يتصل بدلالتها من الترادف والاشتراك والتضمين وغير ذلك.

بل الأصول التي يذكرها البلاغيون يذكرون أنـهم لم يتموا القول فيها، كقول الباقلاني: "فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا، والسيرُ بعد ذلك في التفصيل إليك، وحصِّل ما أعطيناك من العلامة ثم النظر عليك"(١)، قال د. محمد أبو موسىٰ معلِّقًا علىٰ كلام القاضي: "وهذا ومثله كثيرٌ، كنا وما نزال نقرؤه ولا نقف عنده مع أنَّ فيه معنًىٰ مهمًّا جدًّا، وهو أن الباقلاني وهو أوسع من تكلم في الإعجاز يقول: إن الذي كررته هو كلامٌ مجملٌ وتفصيله مسؤوليتك أنت أيها القارئ، ويكرر هذا المعنىٰ ويقول: إن الذي قلته ليس نظرًا كافيًا في العلم، وإنما هو بمثابة علامةٍ وضعتها لك عند المواطن التي فيها علمٌ، أما النظر في استخراج العلم فهذه مسؤوليتك أنت، وهذا كلام حسنٌ يُدهش ويروع.. ومن أفضل ما قال الباقلاني في هذا المعنىٰ قوله: "ولعلك تستدل بما قلنا علىٰ ما بعده، وتستضيء بنوره، وتـهتدي بـهداه"، وهذا ظاهرٌ في أنَّ العلم الذي قاله ليس إلا دليلًا علىٰ الذي لـم يقله.. والذي قاله الباقلاني قال عبد القاهر مثله وأكثر، وكان إذا وقف عند مسألة وفتح بابـها وانثالت عليه مسائلها قال ما قال، ثم يقطع كلامه فجأة ويقول: ولو بقينا نتتبع محاسن هذا الباب لطال بنا الكلام، ونكتفي بما قلنا، وننتقل إلىٰ كذا، وهذا شائعٌ جدًّا.. ولو تتبع متتبعٌ المواضع التي أشار

---

(١) إعجاز القرآن (٢٠٥).

علماؤنا إلى أنهم لم يتموها لوجد من ذاك الكثير الدال على نقصٍ ظاهرٍ في كثيرٍ من مسائل العلم"(١).

فدارس البلاغة القرآنية يبتدئ بالعلم المصنَّف ولا ينتهي إليه، وذلك يقتضي عدم إهمال ما لم يذكروه، أو الإضافة إلىٰ ما ذكروا، وقد نَصَّ البلاغيون في مواضع من كتبهم أنَّ ما يذكرونه من أغراض ليس حاصرًا؛ قال عبد القاهر بعد ذكره لأغراض حذف المفعول: "وليس لنتائج هذا الحذف نهاية، فإنه طريقٌ إلىٰ ضروبٍ من الصنعة، وإلىٰ لطائف لا تُحصىٰ"(٢).

وقال في تفصيل التشبيه: "واعلم أن هذه القسمة في التفصيل موضوعةٌ علىٰ الأغلب الأعرف، وإلا فدقائقُه لا تكاد تُضبَط"(٣).

وقال السعد في المعاني البلاغية للاستفهام: "ولا تنحصر المتولِّداتُ فيما ذكره المصنِّف.. بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك علىٰ معنًىٰ سمعتَه أو مثالٍ وجدتَه من غير أن تتخطاه، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية، والله الهادي"(٤).

والمقصود أن يستحضر دارسُ بلاغة السورة ذلك حتىٰ لا يَقتصر علىٰ ما ذكروا ويكون عمله تتبع أمثلتها من الآيات فقط، بل عليه أن يتدبر ويتروَّىٰ ويذهب مع النص حيث ذهب به، فيُضيف إلىٰ البلاغيين ويقوِّم ويستدرك ويؤكِّد.

وإنَّ البلاغي الحاذق يجد عند التطبيق علىٰ النصوص البليغة مجالًا للقول ذا سعةٍ، إذا أمدَّها بطول التأمل وإشباع النظر، فاختزالُ الفكرة البلاغيةِ قتلٌ لها(٥).

---

(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي (١١٧).

(٢) دلائل الإعجاز (١٦٣). وينظر: (٣٩، ٤٠).

(٣) أسرار البلاغة (١٦٩).

(٤) المطول (٤٣٦).

(٥) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي (١٧٢).

وهذه السعة أوسع ما تكون عند دراسة السورة، وتتابع آياتها، فتبرز لطائف لا يحصرها العدد ولا ينتهي بها الأمد(١)،

ولأجل هذا قد نجد في التفاسير من البحث البلاغي أكثر مما نراه في كتب البلاغة(٢)، وأصدق مثال علىٰ ذلك الزمخشري في الكشاف، "فبلاغة عبد القاهر التي راقت كثيرًا من الباحثين المحدثين أضعها بعد دراسة الزمخشري، وذلك لأن التحليل والتفسير الذي هو صميم البحث وخلاصته في دراسة الزمخشري أشمل وأدق"(٣)، "ولم أعرف أحدًا أضاف إلىٰ علم عبد القاهر علمًا من طبقة علمه إلا الزمخشري.. فأضاف مما أنبت من علم عبد القاهر علمًا كثيرًا ونافعًا"(٤).

وهناك أمرٌ جديرٌ بأن يكون من قصد دارس بلاغة السورة، وهو الوقوف عند ما تفرَّد به القرآن الكريم من بلاغة لا توجد في غيره، وهو العلم الذي حاول وضع أساسه الخطابي في رسالته في الإعجاز، ويمكن أن نسميه: (علم البلاغة الخاص بالقرآن)(٥).

وأختم هذا الأساس بقول ابن القيم: "في [القرآن] من قواعد الإعراب وقواعد علم المعاني والبيان ما لم تشتمل عليه ضوابط النحاة وأهل علم المعاني إلىٰ الآن.. وهذا أمرٌ يتسارع الجُهَّال والمقلِّدون إلىٰ إنكاره، والذين أوتوا العلم يعرفونه حقًّا"(٦).

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز (٤٠).

(٢) ينظر: المسكوت عنه التراث البلاغي (١٢٩).

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (٤٣).

(٤) المسكوت عن في التراث البلاغي (١٥٢).

(٥) ينظر: السابق (١٠٦).

(٦) الصواعق المرسلة (١/ ٤٣٦).

## المبحث الثاني: الإجراءات، وطرائق التحليل

يتناول الأدوات والطرق الإجرائية التي يتبعها المنهج في دراسة هذا المجال من النظم القرآني، وفيه خمسة مطالب:

### المطلب الأول: دراسة السورة وفق نظمها وترتيبها، وعدم تفريق أجزائها وفق فنون البلاغة:

وذلك لأن السورة وحدة موضوعية لها اسمٌ يميِّزُها عن غيرها، ولها فاتحةٌ وخاتمة، ولها موضوعات كبرىٰ تنتظمُ جميع آياتها، وتتدرج في تقريرها، فلا سبيل للكشف عن بلاغتها إلا إذا كانت الدراسة تسير وفق التلاوة، أما تقسيمها علىٰ مسائل العلم كأن تُحشد التشبيهات في السورة، ثم الاستعارات.. إلخ ويتتبعها الدارس ويَجمعها في صعيدٍ واحد، فهذه تذهب بروح بلاغة السورة وجوهرها، فهي غير مجديةٍ إلا إذا جاءت بعد الدراسة المصاحبةِ لنظم السورة من أولها إلىٰ آخرها، فتأتي حينئذٍ متممةً لها، لا سيما إذا لاحظ الدارس حضورًا ظاهرًا لبعض الظواهر اللغوية تتميز بها السورة، ككثرة التشبيهات فيها، أو قصر فواصلها، أو كثرة أقسامها (جمع قَسَم)، أو كثافة الجمل الاسمية فيها أو الفعلية، أو ما فيها من فرائد، أو غير ذلك مما يرىٰ الدارس أنه بحاجة إلىٰ إبرازٍ ومزيد تأمل في أغراضه، وهذا هو الإجراء الرابع الذي سيأتي ذكره.

وهل معنىٰ ذلك أن الدراسات التي تخص نوعًا بلاغيًّا في القرآن بالبحث غير مجدية أيضًا؟

الجواب: لا، إذ هناك فرقٌ بين من يدرسُ سورةً، ومن يدرس نوعًا بلاغيًّا فيها أو في القرآن الكريم، فحديثنا عن الأول فحسب، فهو الذي لا يسوغ له أن يجعل السورة كالفهرس للأبواب البلاغية، فمثله مثل من عمد إلىٰ قصيدةٍ من عيون الشعر العربي

تخلب لبَّ سامعها وتهزُّ شعوره فأراد أن يبيِّن السبب في أن كان لها هذا الأثر وهذا الفضل، فبعثر أبياتَها وصنَّفها أصنافًا جديدةً، فعادت القصيدة غير القصيدة، ولم يعد لها من الماء والرونق والمزية ما كان لها.

أما الآخر -وهو من أراد بحث نوعٍ بلاغيٍّ في القرآن أو في سورة- فقد أراد بالقصد الأول ذلك النوع، وإنما جعل القرآن الكريم محلًّا له، ومعيارًا يقوِّم به معارفه، فهذا النوع مهمٌّ ولا غنىٰ عنه.

## المطلب الثاني:

### تحديد مقصد السورة، ثم تقسيمُها إلى مقاطع حسب موضوعاتـها وبيانُ مناسباتـها، وأغراضِ انتقالاتـها، ودراسةُ الفاتحة والخاتمة مبرزًا تلاؤمهما مع سائر مقاطع السورة وخدمتهما لغرضها الكلي

هذا إجراء مهم، فالسور -لا سيما الطوال منها- لا تدرس بلاغتها قطعةً واحدة، بل تُقسَّم أقسامًا: فاتحة السورة، وموضوعاتـها، وخاتمتها، مع تحديد مقصدها علىٰ ما تقدم في الأساس السادس من أسس المنهج.

ويمكن أن تصنَّف الموضوعات أيضًا إن اقتضت الحاجة، بل والآيات أيضًا، ثم تبنىٰ علىٰ ذلك الدراسة البلاغية التحليلية، ويلاحظ فيها المعنىٰ الكلي للسورة، ثم تعانق موضوعاتـها، ودقيق مناسبتها، وحسن ابتدائها وختامها.

**وسأطبِّق هذا الإجراء من خلال (سورة النبأ) زيادةً في البيان، فأقول:**

هذه سورةٌ مكيَّةٌ، وبِتَدَبُّرِها يتبين أنَّ لها مقصدًا وهو (البعث)، وقد جاء جليًّا من أول السورة إلىٰ آخرها، وانتظمتْه موضوعاتُها، وذلك علىٰ النحو التالي:

- فاتحة السورة وفيها الإخبار عن تكذيب المشركين بالبعث: وتمثلها الآيات (١-٣).
- تهديدهم ووعيدهم: الآيتان (٤- ٥).
- من آيات الله الدالة علىٰ قدرته علىٰ البعث: الآيات (٦- ١٦).
- ما يجري يوم البعث: الآيات (١٧- ٤٠).

وبالتصنيف والترتيب علىٰ هذا النحو يَدِقُّ نظر الدارس، ويلحظ لطيف المناسبات، وحسن التقسيم، والخروج، والاعتراض، والاستطراد، وقبل ذلك اختيار المفردات وما توحيه، وأغراض التراكيب، وتنوع الأساليب، ويفصِّل القول في كلِّ قسم.

وقبل ذلك يعطي الفاتحة حقَّها من النظر المستقل ويجلِّي حسنَها وبراعةَ الابتداءِ بها، وكذلك الخاتمة؛ فإنه مع نظره في مفرداتها وتراكيبها يلاحظ وقوعها في ختام السورة، ويبحث عن وجه التأنق فيها.

وكما تصنَّف السورة، فقد تُقَسَّم الآية أو الآيات إن اقتضىٰ ذلك إبرازُ المعاني، كما في المقطع الثالث من سورة النبأ (الآيات ٦- ١٦) فقد ذكر سبحانه وتعالىٰ تسعةَ أمورٍ دالةٍ علىٰ قدرته تعالىٰ علىٰ البعث، فلماذا هذه الأمور دون غيرها؟ وبتأملها سيَفتح له ذلك بابًا إلىٰ حسن تقسيمها وعظيم حجتها ولطف ترقِّيها، ويكشف له من بلاغتها ما كان خفيًّا، ويرىٰ أثر ذلك في نفسه اطمئنانًا، وفي لسانه بيانًا، وفي قلمه جريانًا.

وإذا كان في الآيات حوارٌ وحجاجٌ نظر فيها من هذه الجهة أيضًا عند دراسة بلاغتها، ليظهر له كيف أسهم البيانُ القرآنيُّ في تقديم تلك البراهين، وكيف احتج وأفحم، وذكَّر وأنذر، حتىٰ أخضع العقلَ وأوجلَ القلبَ واستَدَرَّ الدمعَ.

فلا تكون الدراسة البلاغيةُ تحليلًا منفصلًا عن موقع كل جملةٍ، فإذا أردنا مثلًا دراسة خبر نوحٍ في سورة هود عندما دعا قومه فكان جوابهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة هود:٢٧].

فيجب أن نلاحظ أنهم ذكروا خمسة أمورٍ تمنعهم من اتباعه، فأجابه عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

﴿٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [سورة هود:٢٨-٣١].

فأجاب عن تلك الأمور الخمسة ونقضَها. والمقصود أن يتنبه البلاغي لمثل ذلك ليراعيَه في تحليله البلاغي، فإن هو أغفله أو غفل عنه فقد طرَّق النقصَ إلىٰ عمله.

وقد أشار أبو بكر الباقلاني إلىٰ شيء من هذا المنهج فقال: "فَأَجِلِ الرأيَ في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم، والفواتح، والبوادي، والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقضِ ما أنت قاضٍ، وإن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر علىٰ سورة واحدة، أو علىٰ بعض سورة"(١).

(١) إعجاز القرآن (١٩٣).

## المطلب الثالث

## تحليل المفردات والنظر في دلالات التراكيب وخصائصها، وحروف المعاني

وهذا ميدان البلاغة الأرحب، يحلل فيه البلاغي ويعلل وَفق ما تعلمه في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، ويستوفي الحديث عن المفردات والتراكيب لا سيما ما فيه عدول عن الأصل، ويمكن أن نذكر أهم الجوانب:

- المفردة من جهتها مادتها وصيغتها ودلالتها وسر اختيارها بين مرادفاتها؛ فيحقق أصل معنىٰ المفردة بالرجوع لمعاجم اللغة ولسياقاتها في القرآن والسنة وفي كلام العرب شعرا ونثرًا، ولا يقتصر علىٰ معاجم اللغة فإنها لا تعطيك حدود المفردة حدًّا تامًّا. ثم يدقق في صيغة المفردة فعلًا أو اسمًا مشتقًّا، أو تعريفًا وتنكيرًا، أو إفرادًا وتثنيةً وجمعًا، وغير ذلك كحروف المعاني.

- الجملة؛ فينظر في الأساليب الخبرية والإنشائية وأغراضها، وفي التقديم والتأخير، والقصر.

- الجمل، وأهم مباحثها: الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وخروج الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر ومن مسائله: الالتفات، والتغليب.

- فنون البيان: التشبيه والمجاز بأنواعه والاستعارة والكناية.

- ألوان البديع اللفظي والمعنوي.

ويمكن الوقوف مع إيحاء الألفاظ وبلاغة صوتها أو نبرها إن رأىٰ له شاهدًا يخدم المعنىٰ.

وقد تقدم التنبيه علىٰ أن تُدرس هذه الأبواب مجتمعةً حسب ما يرد منها في كل آية، وألا تُقَسَّم السورةُ وَفقها فتتفرَّق أجزاؤُها.

ولا يمل مع ذلك من طول التأمل ومعاودة النظر فيما قرر البلاغيون ولا يقف عند رسوم ألفاظهم بل ينفذ منها إلىٰ آفاق جديدة يبرز فيها بلاغة القرآن وإعجازه، وقد تقدم التنبيه علىٰ ذلك في الأساس الثامن من أسس المنهج.

## المطلب الرابع

**ملاحظة ما تتميز به السورة كالظواهر المتكررة فيها كتكرار مفردةٍ أو تركيبٍ أو آيةٍ، وكذلك العكس وهو ملاحظة الفرائد التي لم ترد في غيرها سواءٌ كانت لفظةً أو تركيبًا أو أسلوبًا.**

إذا تمت الدراسة بتحليل المفردات والتراكيب فيحسن العود مرة أخرىٰ إلىٰ السورة وإجالة النظر في الظواهر المتكررة فيها، وتدبر أغراض تكرارها وخدمتها لمقصد السورة؛ فمن درس سورة الرحمن لا يمكنه أن يتجاوز الحديث عن تكرار قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ومن قرأ سورة الشعراء كان لزامًا عليه أن يقف مع هاتين الآيتين: (إن في ذلك لآية وما كان أكثر مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم)، وفي سورة القمر قوله: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)، وغيرها.

هذا في تكرار الآيات، وقد يكون في المفردات أو في الأساليب، ككثرة الأقسام في سورة الشمس مثلًا، أو الحذف أو غير ذلك.

ويقابل التكرار: الفرائد التي لم ترد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد، كـ(اشتعل)، (رمزًا)، (ضيزىٰ)، (رهوا)، (الطود)، وغيرها، فإن وجد مجال القول ذا سعةٍ فليقل.

وأعم من ذلك ألا يغيب عنه ما تتميز به السورة، من أي وجه كان، ككونها أطول سور القرآن كسورة البقرة، أو من السبع الطوال، أو من قصار السور، أو أول ما نزل أو آخر ما نزل، وكونها مبنية علىٰ فاصلة واحدة من أولها إلىٰ آخرها كسورة القمر والمنافقون والشمس وغيرها، بل ما تغيرت فيه الفاصلة يستحق التأمل أو كما سماه د. الأمين الخضري: "كسر الإيقاع"(١).

وأنبه إلىٰ أن هذه الظواهر التي يرصدها المتدبر قد لا يرىٰ في بعضها دلالةً خاصةً تضيف إلىٰ بلاغة السورة شيئًا لم يذكره، لكن علىٰ أي حالٍ لا بد أن يكون قد تنبه لها.

(١) ينظر: دراسات في إعجاز القرآن (٢١٩).

## المطلب الخامس:

## توجيه الأسئلة للنص، ومنه سؤال البديل: لم لم يعبر بكذا؟

من المعلوم أن الكلام يمكن أداءُ أصل معناه بألفاظٍ وأساليبَ مختلفة، ومن هنا يتوجه سؤالٌ لكل نصٍّ بليغٍ عن سر اختيار مفرداته وتراكيبه دون غيرها، لِيظهرَ فَضْلُه وتَبِينَ مَزِيَّتُه، لا سيما عند العدول عما هو أولىٰ باديَ الرأي.

وليس التصريح بالأسئلة مقصودًا لذاته، وإنما المقصود أنها عملية عقلية حاضرةٌ في ذهن الدارس تفضي به إلىٰ فهمٍ عميقٍ للبيان القرآني وتكشف سموه وعلوه ومباينته لسائر الكلام، سواء كانت بافتراض سؤالٍ تبادر إلىٰ الذهن، أو ورد علىٰ لسان طاعن، أو استحضر الكاتبُ الجواب عنه وإن لم يصرِّح به.

وهذه جادةٌ مسلوكةٌ عند أهل العلم في بيان بلاغة القرآن وإعجازه، فمن ذلك قول ابن قتيبة في حكايته لمطاعن الملحدين: "وقالوا في قوله تعالىٰ: (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف): كيف يذاق اللباس؟ وإنما كان وجه الكلام: فألبسها الله لباس الجوع والخوف، أو غشَّاها الله لباس الجوع والخوف، أو فأذاقها الله الجوع والخوف، ويحذف اللباس"(١).

وقول الخطابي: "فإن قيل: إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها؛ لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها، كقوله: (فأكله الذئب) وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصًا: "الافتراس"، يقال: افترسه السَّبُع.."(٢).

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٧).

(٢) بيان إعجاز القرآن (٤٦).

وقال الباقلاني: "وجه الوقوف علىٰ شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله: (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) وهل تقع في الحسن موقع قوله: "ليأخذوه" كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك (ليقتلوه)، أو (ليرجموه)، أو (لينفوه )، أو (ليطردوه) أو (ليهلكوه)، أو (ليذلوه)، ونحو هذا =ما كان ذلك بديعًا ولا بارعًا، ولا عجيبًا ولا بالغًا، فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام، وانتقاء الألفاظ، والاهتداء للمعاني، فإن كنت تقدر أن شيئا من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها، يقوم مقام هذه اللفظة، لم تقف علىٰ غرضنا من هذا الكتاب، فلا سبيل لك إلىٰ الوقوف علىٰ تصاريف الخطاب، فافزع إلىٰ التقليد، واكف نفسك مؤونة التفكير"(١).

فهذا النص جيدٌ في الكشف عن كون فكرة المقارنة بالبدائل الممكنة هي أعلىٰ المسالك في فقه بلاغة النص(٢).

حتىٰ إذا بلغت النوبة عبد القاهر والزمخشري وجدناهما حَفِيَّيْنِ بهذا الأصل، لا تكاد تخلو منه آيةٌ استنطقا بلاغتها، كما فعل عبد القاهر عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [سورة مريم:٤]، فقد بيَّن مزيتها وفضلها علىٰ ما لو قيل: (واشتعل شيب الرأس)، أو (اشتعل الشيب في الرأس)(٣)، وكما قال في بلاغة المجاز العقلي: "من الذي يخفىٰ عليه مكانُ العلوِّ وموضعُ المزِيَّةِ وصورة الفرقان بين قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [سورة البقرة:١٦] ، وبين أن يقال: (فما ربحوا في تجارتهم)؟"(٤).

---

(١) إعجاز القرآن (١٩٧).

(٢) مدخل إلىٰ البحث البلاغي (٧٠).

(٣) دلائل الإعجاز (١٠٠).

(٤)دلائل الإعجاز (٢٩٥).

وهكذا فعل الزمخشري وصَدَّر كثيرًا من تلك الموازنات بقوله: "فإن قلتَ.. قلتُ..."، كقوله عند آية: ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ [سورة البقرة:١٩] "فإن قلت: رأس الإصبع هو الذي يُجعل في الأذن، فهلا قيل: (أناملهم)؟"(١).

والمقصود أن هذا الإجراء مهمٌّ في دراسة بلاغة الآية والسورة، فإنه لم يكتف بسبب ورودها علىٰ تلك الهيئة المخصوصة، بل تمَّمها ببيان بلاغتها بالنظر إلىٰ ما يقاربها في لسان العرب، وهذا أدعىٰ في البَصَر بوجه إعجازها.

وذلك لأن المتكلم بأي كلام تكون عنده خيارات متعددة يعبر فيها عن مراده، فيختار الأمثل منها عنده، ثم يأتي مَن بَعدَه ليسبُرَ تلك البدائل ويرىٰ صدق هذا الاختيار، ومع وجود هذه الاحتمالات يظهر الفضل، وفي ذلك يقول عبد القاهر: "لا فضيلة حتىٰ ترىٰ في الأمر مصنعا، وحتىٰ تجد إلىٰ التخير سبيلا، وحتىٰ تكون قد استدركت صوابا"(٢). وقال: "واعلم أنه إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتىٰ لا يشكل، وحتىٰ لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب إلىٰ فكر وروية =فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذا أنت تركته إلىٰ الثاني"(٣).

قال د. إبراهيم الهدهد: "طرح الاحتمالات التركيبية الممكنة من مسالك فقه بلاغة النظم عند الأئمة.. وهي فكرة متجذرة في التراث البلاغي، وهي قائمة علىٰ اعتبار أن الأديب كانت عنده حين بناء النص عدة احتمالات تركيبية، وأنه اصطفىٰ

(١) الكشاف (١/ ٨٤).

(٢) دلائل الإعجاز (٩٨).

(٣) دلائل الإعجاز (٢٨٦).

منها ما هو أنسب بمقصده وألصق بمراده"[١]، وقال: "وكأنه إجماع من الأسلاف علىٰ أن المنهج السديد في استخراج مكنون بلاغة الذكر الحكيم: هو مساءلة الكلام، وطرح التعبيرات الممكنة.. وبقدر مساءلة الكلام والمثابرة في البحث عن أجوبة، يكون عطاء الرحمن في فقه بلاغة الكتاب العزيز"[٢].

(١) مدخل إلىٰ البحث البلاغي (٦٥).

(٢) السابق (٧٤).

## الخاتمة

تم بحمد الله هذا البحث، وفيه محاولة وضع منهج لدراسة بلاغة السورة، وقد مهدته بالحديث عن معنىٰ السورة، وعن الفرق بين دراسة السورة ودراسة الآية، ثم عقدت مبحثين أحدهما في أسس المنهج، والآخر في إجراءاته، واشتملا بمجموعهما علىٰ اثني عشر مطلبًا، ولا أريد أن أعيد ما إجمال ما فصَّلته في البحث بعدًا عن التكرار، ولذلك سأكتفي بذكر ما لـم أقدِّم التصريح به فأقول:

**أولًا:** وضع المنهج هو الخطوة الأولىٰ في أي عمل علمي، فلا يَستغني عنه الباحث، ولو كان واضحًا في ذهنه، فإن وجوده مكتوبًا يضمن ألا يندَّ عنه شيءٌ مع انغماسه في تفاصيل بحثه.

**ثانيًا:** المقصود بهذا المنهج المعالم الكبرىٰ التي لا يجوز الإخلال بها، ولكل باحث بعد ذلك أن يزيد ما يراه لا سيما إذا اقتضت دراسته ذلك، وكذلك لا يُقصد السير علىٰ ترتيب هذا المنهج في كل دراسة، وإنما المهم مراعاة تلك المعالم وللباحث بالطريقة التي يرىٰ أنها أنفع.

**ثالثًا:** السورة وحدة موضوعية مميَّزةٌ باسمٍ ولها أولٌ وآخِر، فدراستها مختلفة عن دراسة آيةٍ أو آيات، وتبعًا لذلك يجب أن يختلف منهج دراستها، وهو ما انتهض به هذا البحث.

**رابعًا:** دارس البلاغة القرآنية لا يمكن أن يستقل بعلمه بالبلاغة دون أن يستعين بالعلوم التي تشاركه في فهم معاني الآيات وخاصة علم التفسير، فيجب أن يوائم بين تلك العلوم، ويعرف حدودَ كل علم، وحينئذٍ ستكون متعاضدةً لا متعارضة، وإن لم يفعل ذلك فسيكون علىٰ خطرٍ من أن يقول في كتاب الله تعالىٰ بغير علم ولا هدىٰ.

هذا ما تيسَّر حسب جهدي وطاقتي، فإن كان من صواب فمن الله وحده، وإن كان من خطأ فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله تعالىٰ، وأرجو من أهل العلم أن يرشدوا ويقوِّموا، لأن المناهج لا تتم إلا بذلك.

**وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.**

# فهرس المراجع

**الإتقان في علوم القرآن**: السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

**الاستقامة**: ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ.

**الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**: د. محمد كريم الكوَّاز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

**الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم**: د. محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

**إعجاز القرآن**: أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دون تاريخ.

**الإيضاح لتلخيص المفتاح**: الخطيب القزويني، حققه الدكتور ضياء الدين القالش، دار اللباب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤٥هـ.

**البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري**: د. محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

**بيان إعجاز القرآن**: أبو سليمان الخطابي، تحقيق ودراسة د. يوسف العليوي، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٩هـ.

**تأويل مشكل القرآن**: ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

**التفسير البسيط**: الواحدي، تحقيق مجموعة من الباحثين، من مطبوعات جامعة الإمام بالرياض، ١٤٣٠هـ.

**تفسير القرآن بالقرآن تأصيل وتقويم**: د. محسن المطيري، دار التدمرية، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٢هـ.

**التلخيص في أصول الفقه**: أبو المعالي الجويني، تحقيق بشير العمري وزميله،

دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ.

**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: شيخ الإسلام ابن تيمية، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، جدة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤١هـ.

**الحيوان**: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، تصوير دار الجيل.

**الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**: ابن أبي الإصبع، تحقيق د. حفني شرف، الرسالة، بيروت، ١٩٦٠م.

**دراسات في إعجاز القرآن الكريم**: د. محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٧م.

**شرح مختصر الروضة**: الطوفي، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.

**الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: ابن القيم، تحقيق حسين عكاشة، دار عطاءات العلم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤٢هـ.

**القرائن عند الأصوليين**: د. محمد المبارك، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

**قواعد الترجيح عند المفسرين**: د. حسين الحربي، دار القاسم، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ.

**الكشاف عن حقائق التنزيل**: الزمخشري، حققه وعلق عليه ماهر أديب حبوش، دار اللباب، تركيا، الطبعة الثانية، ١٤٤٢هـ.

**مدخل إلى البحث البلاغي**: د. إبراهيم الهدهد، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٨م.

**مراجعات في أصول البحث البلاغي**: د. محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

**المسكوت عنه في التراث البلاغي**: د. محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٧م.

**منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكي**

**والخطيب القزويني**: د. عويض العطوي (بحث منشور ضمن مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٨، ع ٣٠، جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢٥هـ).

**منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**: د. فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

**الموافقات**: الشاطبي، تحقيق مشهور آل سلمان، دار عفان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧ه.

**الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**: المرزباني، تحقيق علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

**نقد الشعر**: قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفىٰ، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.

**الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**: د. سامي العجلان، دار التفسير، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٣٦هـ.